العرب في التاريخ

٧ سكان عربة والعراق بعد الغطحل

اتصال العراق بديار العرب اتصال وثيق العرى ، لا يمكن للواحد ان يبحث عن عربة ويسكت عن ارض الرافدين . فقد تقدم القول ان في عهد الفيضانات الكبرى ، او عهد الغطحل ، كان بعض الناس قد لجأ الى معاقل شوامخ بلاد العرب ، ومنها انحدروا فحبوا الديار الطيبة منها حتى كثروا ، فمن اين جاء سكان سفي الفراتين قبل بضعة الوف من تاريخنا ، ونحن نرى في ذلك العهد خروج كلدية من البحار خروجاً حديثاً ؟ — ومن اين جاء سكان عيلم او عَلَم او عيلام ؟

لا جرم انهم لم يطرأوا عليها من ديار فارس ، اذ كانت خاوية خالية ، ولا تمكن السكنى فيها يومئذٍ . ولذا نظن انهم هبطوا اليها من الهضاب التي تغلق من الشمال ابواب العراق من بحر قزوين الى ايجي . ومما يجدر بالالتفات اليه ، هو : ان اندفاع الطوارئ من القبائل لم يقع الاَّ بعد فتح الباب

ومهما يكُ من الامر ، فان امتزاج المقوّمات البشرية واللسانية ابتدأت منذ ذيّاك العهد في آسية المتقدمة . وما كادت تأهل تلك الاقطار الواسعة الاكناف ، الاَّ وابتدأ الاختلاط والامتزاج بالتناسل . وكأن هذا المزج لم يكفِ ، فجاءت طُرُاة ازمنة التاريخ وزادت الطين بلة ، حتى اصبحت مسئلة تحاب الامم الى المتقدم من آسية اعقد من ذنب الضبّ ، بل دونها خرط القتاد

اننا لا نعرف شيئاً من المميزات التي كانت تميز هاتيك الشعوب ، او لغاتها ، وهي قد تراءت عنّا بعداً وقدماً ، الاَّ اننا نسمع بعد ذلك ، بذكر اسماء كثيرة ، ولا جرم ان اكثرها يوافق هذه الحركات الاولى ، والقليل منها يمكننا من ان نميز الاسيانيين[1] من الغرباء والمولودين في آسية من الغزاة القادمين من الشمال ، اولئك الذين هبطوا اليها من وادي سيبرية ، عابرين جبل القبق (او كوى قاف او قوقاس او قفقاسية) او قاطعين الهلسبنطس[2] ،

(١) الاسيانيون كلمة ادخلها الافرنج بمعنى سكان آسية الصغرى في العهد القديم تمييزاً لها من الاسويين المنسوبين الى آسية البر الاعظم

(٢) الهلسبنطس او بحر هلي هو المعروف في عهدنا بمضيق الدردنيل الذي يصل بحر ايجي (اي بحر يونان) بالبروبنتيدة (اي بحر مرمرة) وهو الذي يفصل آسية العظمى عن اوربة

بل المتحدرين من نجد ايران المُقلت من المحامد (جمع محمدة)

ولا يمكنك ان تفكر ما عند القبيلين من المنازل التي تدل على اصلهم منذ القدم. قلنا: ومن هذين القبيلين نشأ العمران الاكبر ، عمران العالم الحديث . واصل هذين القبيلين البشريين وتطورهما [1] او تكاملهما [2] ، هي المسألتان الرئيسيتان ، اللتان تهمان التاريخ

على ان بعض متعصبة الافرنج ، يحاولون ان ينكروا عمالأة القوم السامي لقوم الهندي الاوربي او بالعكس ، ويسبون كل تبحّر في الحضارة الى العنصر غير السامي بيد ان مكشوفات العراق، وفلسطين ، وديار مصر ، نهضت من دفائنها لتفنيد هذا الزعم الفائل، وتكذّب اولئك

ولهذا مما يرغب فيه اليوم، ويفيد المؤرخين الباحثين ان يتقصّى الحفيّ منهم في الآثار العادية ويمعن فيها ليطلع على اقدم الطوارئ الآرية التي هبطت على آسية المتقدمة ، ويحاكم احداث تلك الاقوام محاكمة مجردة عن كل غرض

اننا نعلم ان التوريجيين والارمن وبعض امم آسية الصغرى الواغلة في القدم ، كانوا ينتمون الى العشيرة الهندية الاوربية . والآن جاءت الانباء لتورد لنا ان هناك آريين اصيلين بدوا لنا اليوم لينضموا الى العشيرة المذكورة . فانبثاق هذا الفجر الجديد يطلعنا على امور كان علماء الافرنج انكروها قبل نحو بضعة قرون وهي الآن تزداد جلاءً ووضوحاً، اذ يبدو لنا الآريون الاسيتون بمظهر العائشين في الشرق المتقدم عيشةً تدل على انهم

(١) انكر بعضهم كلمة تطور لانهم زعموا ان لا وجود لفعل طور في العربية . — قلنا : ورد في التاج نقلاً عن شيوخه في كلامه عن الخضر اذ يقول : «وقد اعطي قوة التطور في اي صورة شاء» اه . وعليه يكون التطور من باب المطاوعة للتطوير

(٢) قال المتحذلقون من كتابنا : لم يرد تكامل في دواوين اللغة . قلنا : صدقتم . الا ان الاناء مهما اتسعت اعضاده يضيق دون استيعاب بحر اللغة والدليل ان تكامل ورد في شعر اشعر الناطقين بالضاد وافصحهم منطقاً . قال المعري :

« وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم باخفاء شمس ضوءها يتكامل » ؟ وانت تعلم منزلة المعري وصفاوة فكره ونقد ولغته

ومن العجيب ان دوزي المستشرق الهولندي الذي جمع في معجمه كل غث وسمين من الفاظ العرب لم يذكر هذا الفعل مع انه ورد ايضاً في كامل ابن الاثير وقد نزع من هذا المصنف اغرب الكلم التي لم تنقل في كتب متن اللغة . واللغوي الوحيد الذي ذكر فعل تكامل هو فرنسيس جونسن Francis Johnson في معجمه البديع الفارسي العربي الانكليزي Dictionary Persian, Arabic and English. London 1852. p. 370

كانوا يخالطون الساميين منذ الازمان الضاربة بعرق في القدم

٨ تمييز الساميين من غيرهم بالنظر الى اشكال رؤوسهم وقدم العرب

العرب في هذا العصر ، مبثوثون في ديار عديدة ، فضلاً عن وجودهم في عربة . فانك تراهم في قسم من العراق ، وعلى حاشية البحر الاحمر ، وعلى الساحل الشرقي من خليج فارس ، وفي شمالي افريقية . فكيف يميزون عن غيرهم ؟ — ان العلم الحديث وضع بعض الضوابط لهذه الغاية ومن جملتها شكل الرأس

والعربي المحض ، مصفح الرأس[1] ، وهو يُرى في جنوبي عربة ، في جبال حضرموت واليمن التي اشتهرت باقيالها . ومن المصفحي الرؤوس بنو اسمعيل او العرب المستعربة وهم الذين تراهم في قلب الجزيرة وفي شمالها . واما الذين يجاورون السواحل والعراق ، فمنهم مزيج لزواجهم باعقاب الاشوريين المنتشرين على الفراتين ، او بالاتراك الذين احتلوا البلاد

وقد لاحظ دنيكر في كتابه « الرسوس وام الارض J. Deniker. Les Races et les Peuples de la Terre. ان في الاحساء وعلى سواحل اليمن كثيرين من العرب متزوجين من السودانيات او من الحبشيات ، او بالعكس

وترى عرباً ايضاً ، او متعربين ، او مستعربين ، او مستجمين في إسپانية ، وجزر البحر المتوسط وايران الغربية ، والهند ، ولاسيما في سورية ، وفلسطين ، حيث اختلطوا ببقايا اقوام سامية فنيقية وكنعانية واسيانيين (من قدماء سكان اسية الصغرى)

ومما يجب ان ينتبه له ان خلق المصفح الراس الاصلي ، لا يوجد في اصقاع عربة وحدها ، تلك الاصقاع التي حُبس عنها كل مزيج غريب عن سكانها ، بل في ديار الجزائر ، و بلاد المغرب . اذن يجوز القول ان الساميين الخلّص يتصلون من جهة الشب

---

(١) المصفح الراس هو الذي ينضغط رأسه من قبل صدغه فيطول مابين جبته وقفاه . وهو غير المسنط الراس الذي يكون رأسه كالسفط اي طويل من قبل الصدغين ويكاد يكون مفلطحا من جهة قة الراس . فالمصفح الراس بالفرنسية dolicocéphale وعكسه المدور الراس او القصيره او المجتمعه وبالفرنسية brachycéphale وهناك المصعب الراس وهو من كانت قة رأسه تذهب صعداً او طولاً oxycéphale والمسنط الراس thécocephale والصعل الصغير الراس وهو الصمصم والصغير والصعروب microcéphale . والقندل الراس العظيمه وهو الصعب الراس والسندأوة والقندوس والدرواس والقندل الراس الكبيرة macrocephale وهناك غير هذه الاقسام الا ان ما ذكرناه هو المشهور عندهم

بالاسرة الرابعة التي سميت « أسرة البحر المتوسط » وليس لها شيء تشترك به مع الشعوب الاوربيين المكربسي الرؤوس او المجمجمها او المدوّريها

فالبحث عن الساميين الحدثين يسوقنا الى القول بان بؤرة العشيرة السامية انسان، في عربة او جزيرة . وهذه النتيجة تتفق كل الاتفاق مع ما نعرفهُ من المأثورات عن السلف ، ومن التاريخ ، ومن توزع الالسنة منذ اقدم الازمان واوغلها في الماضي . والذين يرون هذا الرأي يجعلون العراق العربي او العراق الحقيقي ، او سقي الفراتين ، قسماً من عربة ، لا جزءاً منفصلاً عنها

ومن ميزات العرب انهم بيض الالوان او سمرها ، والساميون الذين كانت يعرفهم المصريون في عهد الفراعنة كانوا بيضاً أيضاً ، او بعبارة أخرى ، كانوا سمراً . ولقد ذهب بعض الكتبة اعتماداً على هذه الصفة من اللون ان بني الضاد ليسوا من التُّناء في عربة ، بل من الطُّرَّاء[1] عليها ، لان من يسكن الديار التي تحرقها الشمس لا يكون ابيض ، بل اسود على ما يزعمون. ولهذا عرضوا على العلماء ان يذهبوا الى ان العرب هم من اهل الشمال في اصل منزلهم . وهذا خطأ وخطل ، لان لون الجلد لا يتأثر تأثراً عظيماً من جهة عرض البلاد او قربها من خط الاستواء ، ولهذا لم يصح كل الصحة اطلاق اسم (البرّ الاسود) على افريقية، اذ هيهات ان يكون جميع سكان تلك الارض الواسعة سوداً ، فان البربر ، والهُنْتُوت ، والبوشمن ، وغيرهم ، ليسوا سوداً . ولو كان للعَرَض تأثير او فعل في تلوين الجلد ، لكنا شاهدنا في امريكة الاستوائية اناساً كلهم سوداً ؟ مع اننا نعلم ان جميع اهالي تلك الاقطار نحاسيو اللون . وعليهِ ليس من مانع يمنع العرب من ان يكونوا تُناة بعربة ، وهم ممثلو العشيرة السامية تمثيلاً خالصاً لا شائبة فيهِ . ولذا فهم يتصلون بالرسوس القديمة التي كانت تسكن سقي البحر المتوسط في الازمنة الرابعية [1]

---

(١) تنأ بالبلد وتنح بمعنى وهو نأى ببلده . وهو من تناء الكورة اذا كان اصله منها (الاساس) والطراء ضد التناء . يقال : امن تناء الكورة انت ام من طراثها (الاساس)

(١) يسمي الكتاب المصريون ما يسقيه النهر من الارضين او البلاد او ما يغمره البحر من شواطىء القرى والمدن (حوضا) . وهم يقولون تلاً ممتوبا كلمة basin الانكليزية او bassin الفرنسية . والعرب لا تعرف هذا المعنى لهذا الحرف . فان الحوض في عرفهم « مجمع الماء والجمع احواض وحياض » (اللسان) ولم يرد عندهم بمعنى آخر . نعم قد يقال : هذا من باب تسمية الكل باسم الجزء ، او من باب التوسع في المعنى . أجل كل هذا حسن ، ولم يكن عند الناطقين بالضاد

٩ خصب بلاد العرب في سابق العهد وهجرة اهاليها وضربهم في البلاد

لا ينكر ان جنوبي آسية المتقدمة ، بقي ادهاراً لا يأنس اليه انيس ، وذلك يوجه العموم ، اذ سبق القول : ان اناساً كانوا قد لجأوا الى شواطئ معاقلها ، ثم هبط اليها اقوام غير سامية العنصر . وفي العهد الذي كانت كلدية وسهل عيلم ينفضان عنهما ثوبهما المبلل ، كانت الانهر تتدفق في العراق كما في عربة ، وكانت العيون تتفجر هنا وهناك ، اذ كانت رطوبة الجو شديدة . وكانت الطبيعة قد فرشت باسابيها الغضة ، زرابي مختلفة الالوان ، وزينت بها المروج والاودية ، فكنت ترى في حراجها الصيد على اختلاف انواعه ، والاوابد تتنابها على تنوع اشكالها كالفيل والكركدن ، والايل ، وحمار الوحش واما في اعالي اراضيها الجرداء فكنت ترى الغزال والنعام . واما بنات الماء من الطيور فكانت متفاوتة القدر والشكل واللون وهي تتردد الى المستنقعات تبحث عن السمك ، اذ كان كثيراً لا تعد انواعه ، وهو يلاعب التمساح وفرس النهر ، الى غيرها من الحيوانات وكان ابو الحرث يوشك اشد اعداء الانسان ، ولهذا كان احدهما يعادي الآخر معاداة لا نظير لها

الا ان تكاثف رطوبة الجو ، اخذ يخف شيئاً فشيئاً ، و بدأت اليبوسة تظهر مع ما يرافقها من النوائب ، واكرهت جماعات من الخلق على مغادرة الديار انتجاعاً لمرابع تتدفق فيها المياه لكن تلك الربوع كان قد نزل فيها اقوام سبقوهم اليها ، فضرب عليهم تنازع البقاء وكان ذلك النزاع او النزال من اهول ما كان من نوعه في ذلك العهد ، اذ كانت القبيلة الواحدة تناوئ مناهضتها ، وهذه قد تكون اقوى منها ساعداً واقتل منها عضلاً ، وقد تحتم عليها مقاومتها ، فكانت الدوائر تدور عليها في اغلب الاحايين ، فتضطر الى مزايلة ما

حرف آخر ، ولما كان لهم لفظ يؤدي عندهم هذا المؤدى ، فنحن في مندوحة عما ليس من كلامهم او استعمالهم

اما الحرف الذي استعملوه في هذا المعنى فهو السق (بفتح السين وكسرها) قال الطرزي في شرح هذه السجعة من المقامة الثانية والعشرين من مقامات الحريري المعروفة بالفراتية : « او اويت في بعض الفرات الى سق الفرات » ما هذا نصه « سق الفرات هو ما يسقيه الفرات من القرى ، تسمية بالمصدر او على حذف المضاف . ومن روى سق (بالكسر) فهو فعل بمعنى مفعول : الا ان الفتح هو المذكور . قال : قرأت في كتاب قدامة : هذا ما عهد امير المؤمنين الى فلان بن فلان حين ولاه تقسيط الطاسيج وامره ان يفعل كذا وكذا وان يسير الى طاسيج سق الفرات حتى يستقريها طسوجا طسوجا . وبخط الحريري : سق بكسر السين . » اه بحروفه عن الطرزي

كانت قد عززته بهمتها ، ولما كانت الضعينة منها لا تجد ما تقاوم به اعداءها من القوة والجبروت ، كانت تتقرض وتتلاشى . فكم وكم من هؤلاء انحقوا ولم يبقوا لنا ذكراً ، اذ منهم من كان فريسة الجوع ، وآخرون افترستهم الاوابد وبعضهم قتلوا في اثناء المقاومة وكثيرون منهم امتزجوا بالمتغلبين عليهم ، فذابوا فيهم ذوب الملح في الماء

واليوم ترى في العراق ووادي النيل ، وديار الناطقين بالضاد ، وافريقية الشمالية آثاراً تدل على هذه الظعون المسيَّرة ، وادلة لا تحصى على ان سكان تلك الارصاد لم يزايلوها عن رضى ، بل عن قلى ، وقد قذفتهم الطبيعة من حضنها كرهاً لهم . فاصبحت البلاد المرحة مباءة للجميع ، ومتاباً للنازحين . ولقد غدا اهل كلدية ، ومصر ، نموًّا لا يصدق ، وفي نسب لم يسمع بمثلها ، وقد اختلطت العناصر بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل

ولم تنزل نازلة البيوسة بشمالي سقي الرافدين وافريقية ، بل عمت ديار عديدة ، وأصرت اشد الضرر بالمنحدر الجنوبي من لجة بلاد كلدية ، تلك النجوة التي هي سهل مائل تنحدر عليه السهول المقبلة من الحجاز واليمن وحضرموت لتندفع الى خليج فارس

فاديرت طائفة من السكان مولية وجهها شطر التلعات التي كانت تتناقص اتاويها في اعاليها ، حتى اتت شواخ جبال عربة وفي اليوم تعنى بها . وكانت القبائل يومئذ كثيرة في جوار العيون والينابيع ، ولما كانت المياه تأخذ بالنضوب ، كان اولئك الناس يذهبون الى جوار السواحل . وكانت هناك ايضاً تتناقص البحار بين يدي اولادهم ، حتى قلت المرابع ، وعزت المروج وندرت المراعي ، والتحل في اتساع امام كل امرىء لا يردع الطبيعة ويكبح جماحها ، مهما كان العصر والمصر

لم ينقص اهل عربة في يوم وليلة ، كما انهم لم يهجروها في وقت واحد ، او دفعة واحدة بل حدثت تلك الهجرة مع تغير حالة جوها ، وانقباض الخصب عن اراضيها . ولقد قاوم اهلها نوائب الطبيعة ، وصارعوا عواملها ، مدة قرون طوال ، واضطروا الى ان ينقصوا من حاجاتهم ، ويقللوا من رغائبهم ، ليتبلغوا باليسير من العيش وليوفروا الماء لنفوسهم ، لكنهم اذعنوا في الآخر لحكم الطبيعة الذي لا مردّ له ، ودفعهم العوز الى مغادرة ارجائهم العزيزة وركوب البحر ليبتغوا لهم مقرًّا ومرتزقاً

فنأوا عن البلاد زرافات زرافات ، وانفاذاً انفاذاً ، الى سواحل البلاد المجاورة لهم ، فخلوا في ما يدانيهم من اقطار افريقية وآسية ، فرحبت بالسابيين وفتحت لهم صدورها ، لتقيمهم فيها على الرحب والرغد

فهر الجابري